من صور التشبيه المفرد: في شعر الشيخ محمد الناصر كبر

إعداد:

الدكتور/ المتبولي شيخ كبر

قسم اللغة العربية جامعة بايرو، كنو

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وآله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى).

وبعد:

قسم البلاغيون التشبيه من حيث تفرد وجه الشبه فيه أو تركبه إلى: التشبيه المفرد والتمثيلي.

يهدف الباحث في هذه المقالة إلى دراسة موجزة لبعض صور التشبيه المفرد في شعر الشيخ محمد الناصر كبر؛ دراسة بلاغية تحليلية، ذلكم الشاعر المفلق، الذي كان من الأدباء الأفذاذ، الذين تفتخر بهم نيجيريا في ميدان الشعر، بل إن أي حديث عن الأدب العربي النيجيري في القرن العشرين يكون خداجا إذا خلا من ذكر الشيخ الكبري وإسهماته، إذ خلّف أشعارا ذات طابق مرموق كمّا وكيفا، وقداستطاع الباحث أن يقف على سبعمائة وسبع وستين (٧٦٧) صورة تشبيهية من خلال قصائد ديواني الشاعر، التي يبلغ عدد أبياتها ستة آلاف ومائة وستة وثلاثين (٦١٣٦) بيتا، وأكثر من تسعين في المائة (٩٠%) من هذه التشبيهات كانت في باب التشبيه المفرد.

وستدور المقالة حول نبذة وجيزة عن حياة الشاعر،ثم التعريف بالتشبيه بصفة عامة وبعده التعريف بالتشبيه المفرد بصفة خاصة، ويعقبه الحديث عن بعض صور التشبيه المفرد في شعر الشيخ الكبري، وأخيرا الخاتمة.

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نبذة عن الشاعر:

هو الشيخ محمد الناصر بن محمد المختار بن محمد الناصر بن محمد مَيْزَوري بن أحمد المتخار الشهير بـ(ما لم كبر)، وينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله تعالى عنهما. هذا من جهة والده؛ وأما من جهة والدته؛ فهو حسني، إذ ينتهي نسبه إلى السيد أحمد الصقلي الحسني رضي الله عنه[1].

واسم والدته: مريم بنت ما لم حسن، الملقب بـ(غوني) أي الماهر.

مولده ونشأته:

ولد الشيخ محمد الناصر كبر في غُرِنْغاوا[2]، يوم الخميس، في شهر شوال، عام (١٣٣٤هـ، الموافق عام ١٩١٢م).

توفي والد الشيخ محمد الناصر ولم يجاوز ابنه السادسة من عمره، فقام بكفالته أحد أعمامه، ووارث عريكة العلم في معهد(كبر) آنئذ: الشيخ إبراهيم بن أحمد الشهير بنظغني Natsugune، ذلك الصوفي الزاهد الورع، والبحر الحضم، الذى لا ساحل له في ميدان المعرفة، الذى شهد بفضله وتقشفه الحب والخبّ. لقد اعتنى

الشيخ إبراهيم بيتيمه هذا غاية الاعتناء، ووفر له جميع ما يحتاج إليه في الحياة، وأمده بما يضنّ به الآباء على أبنائهم، وظل تحت رعايته إلى أن توفاه الله، بعد أن قضى معه ثلاثا وعشرين سنة.

تعلمه وعلماؤه:

وأما تعلمه، فقد بدأ تلقي القرآن الكريم في حارة سورنطنك Sorondinki عند الشيخ محمد غجيري Gajere، حيث ختم القرآن الكريم، وهو ابن تسع سنوات، وبعد ذلك عكف على الدرس عند مربيه الشيخ إبراهيم نظغني، كما تتلمذ عند فطاحل علماء عصره ومشاهير دهره؛ أمثال: قاضي قضاة كنو الشيخ إبراهيم بن الأستاذ المعروف بـ(ميغرِ)، وقاضي بثي Bichi الشيخ المصطفي، وإمام الجامع الكبير في كنو الشيخ محمد الثاني، والشيخ عبد الكريم الملقب بـ(سابو) شروماوا Chiromawa، والشيخ إنوا إمام الزاوية، وغيرهم.

وقد تلقى على أيديهم اللغة العربية وعلومها، والدراسات الإسلامية وفروعها، وغير ذلك مما توصلت إليه ثقافة أهل عصره، كعلم الفلك والنجوم والمنطق والفلسفة وعلم الحساب وخط الرمل وغير ذلك.

ظل الشيخ محمد الناصر يواصل ليله بنهاره في طلب العلم، ورزقه الله تعالى من الهمة والذكاء ما جعله يتميز عن سائر زملائه، فكان يحفظ معظم الكتب التي درسها عند أساتذته؛ نظمها ونثرها، ولم يتوقف عن الذهاب إلى المدرسة حتى توفي معظم علمائه، ورأى أن ليس هناك من يروي غلته، فاكتفي بمطالعته الخاصة، وانقطع للتدريس، وخاض في ميدان التأليف وهو ابن بضع وعشرين سنة، وورث عريكة العلم في معهد كبر[٣] بعد وفاة الشيخ إبراهيم نظغني، فأمه

الطلاب من كل ناحية من نواحي نيجيريا وغيرها، وذاع صيته في الآفاق، وصار خادما للعلم والدين عامة، والطريقة القادرية خاصة[٤].

وفاته:

توفي الشيخ كبر يومَ الجمعة، ليلا ٢٠ من جمادى الأولى ١٤١٧هـ، الموافق ٤ أكتوبر ١٩٩٦م، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

نتاجه الأدبي والعلمي:

وقد خلّف المرحوم وراءه إنتاجات قيمة، تنبئ عن رسوخ قدميه في العلم، وشفوف منزلته في الجدّ والاجتهاد؛ وقد تناولت مختلف الفنون العلمية، مثل: التفسير والسيرة وعلوم القرآن والنحو وغير ذلك؛ إلا أن التصوف – وخاصة ما يتصل بالقادرية – هو الذي يأخذ بنصيب الأسد من بين انتاجاته، نثرها وشعرها.

وقد قام الدكتور شيخ عثمان كبر بإحصاء هذه المؤلفات، فذكر أنها لا تقصر عن (٣٠٠) كتاب؛ ما بين منثور ومنظوم، أورد منها (١٦٢) كتابا[٥]، منها:

(١) إحسان المنان في إبراز خبايا القرآن.

(٢) ينبوع الصفا في تحرير بيانات الشفا.

(٣) أحسن الصريف في التعريف بمصحف نيجيريا الشريف.

(٤) الحج الواضح.

(٥) ديوان سبحات الأنوار من سحبات الأسرار.

تعريف التشبيه:

التشبيه لغة: التمثيل، يقال: شبّهت هذا بهذا تشبيها، أي مثلته به.

واصطلاحا: بيان شيء أو أشياء، شاركت غيرها في صفة أو أكثر، بأداة هي الكاف، أو نحوها، ملفوظة أو مقدرة، تقرب بين المشبه والمشبه به، في وجه الشبه[٦].

التعريف بالتشبيه المفرد:

تأتى كلمة "المفرد" في اللغة لتدل على عدة معان، معظمها تعود إلى: التوحّد أو التنحّي والاعتزال وثور الوحش ومقابل الجمع.

والفرد من صفات الله تعالى: هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له، ولا مثل، ولا ثاني.

فالفرد: الوتر، والجمع أفراد وفرادى. ويقال: استفردتُ الشيءَ إذا أخذته فرداً، لا ثاني له. والفَرَدُ والفُرُدُ: بالفتح والضم أي منقطع القرين لا مثل له في الجودة[٧].

وعند الرجوع إلى البلاغيين في باب التشبيه يرى أنهم قد قسموه – باعتبار وحدة وجه الشبه وتركبه – إلى مفرد، ومركب[٨]، في صورة منتزعة من متعدد.

ويريد البلاغيون بالتشبيه **المفرد** ما كان وجه الشبه فيه . صفة أو صفات مشتركة بين المشبه والمشبه به . أمراً بينا لا يحتاج إلى تأويل ولا إعمال فكر، ولا صورة منتزعة من متعدد. كتشبيه الخدّ بالورد، فوجه الشبه بينهما أمر واحد حسّي وهو"الحمرة".وكتشبيه الجواد بحاتم، فوجه الشبه هنا أمر واحد وهو أمر

عقلي وليس من المحسوسات، أو صفات متعددة يمكن أن تكون كل واحدة وجه الشبه على حدة، بأن تشبه مفردا بمفرد، له صفات متعددة؛ كأن تقول: سعاد كأمها طولا وصوتا وأخلاقا. ووجه الشبه هنا متعدد، وتعدده جاء من الطول، والصوت، والأخلاق. ويصح أن تكون كل صفة هنا وجه شبه.

يميّز هذا النوع بأنه لو حذف منه أحد وجوه الشبه مثل الطول، أو الصوت، واكتفي بالباقي صحّ التشبيه. كما لو قلنا: سعاد كأمها طولا وأخلاقا، أو صوتا وأخلاقا. وهذا النوع قريب من الأول ويعد في جملته[٩].

ويكون وجه الشبه **مركبا**[١٠]، حين نشبه صورة بصورة أو مركبا بمركب. مثل قول كليب وائل:

المستجير بعمرو عند كربته* كالمستجير من الرمضاء بالنار[١١]

إن وجه الشبه الجامع بين طرفي التشبيه الهيئة الحاصلة من الالتجاء من الضار إلى ما هو أشدّ منه ضرراً طمعا في الانتفاع به. فالمشبه: صورة رجل، وهو يستجير **بعمرو** عند الشدة. والمشبه به صورة رجل، وهو يستجير من حرارة الرمضاء بالنار. والملاحظ هنا، هو تركب كل من المشبه والمشبه به من عدة عناصر، بحيث غدا كل واحد منهما صورة متكاملة ذات عناصر وأبعاد، ومن تشبيه الطرف الأول بالثاني: نَجَم وجه الشبه المركب – وهو ما يسمى بالتشبيه التمثيلي – أي إذا كان وجه الشبه صورة انتزعت من أشياء متعددة، ولا يمكن أن يكون جزءا مفردا، أو ناحية معينة هي المشبه أو المشبه به، وبذلك صار وجه الشبه صورة منتزعة من أشياء.

صور من التشبيه المفرد في شعر الشيخ الكبري:

لقد اتخذ المرحوم الشيخ محمد الناصر التشبيه المفرد وسيلة هامة لإبراز أحاسيسه ومشاعره بغية إيصالها إلى المتلقي في ثوب فني، لأن "الشاعر إنسان متخيِّل يتوصل بخياله إلى إدراك الاتفاق بين العناصر ومن ثمّ تتوافق الأنواع المختلفة وتتألف الأجناس البعيدة"(١٢). وقد حاول الشاعر بخياله الثاقب أن يقرّب بين الأشياء المتباعدة في صور تشبيهية رائعة، فمن ذلك:

١/ تصوير شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم

لقد كانت المدائح النبوية تحتل محلّ الصدارة من بين جميع المدائح التي صاغها الشاعر كمّا وكيفاً، ولا عجب في ذلك نظرا إلى كون الشاعر صوفيا. والمدائح النبوية باب كبير من أبواب الشعر الصوفي ووسائل التقرب إلى رضوان الله تعالى، وهي كذلك من الدوافع الأصيلة إلى قرض الشعر عندهم، وتمتاز – عامة – بصدق العاطفة وحرارة الشعور وسعة التناول(١٣).

وقد فاضت مدائح الشاعر مبدية شوقه للمحبوب الأعظم حينا، وذاكرة بعض شمائل النبي المختار وخصائصه ومعجزاته حينا آخر، وواصفة ذاك الجناب الطاهر تارة أخرى. فمن بين المواضع التي صوّر فيها محبوبه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، قوله في قصيدة "رحيق الحضرتين ونشيق الحرمين"(١٤):

يا سيد العرب الكرام ومن هو ال إبريز من عُرْب النقا الأقحاح(١٥)
يا أيها البحر الخِضَمُّ الطافح الـ أمواج فوق الأبحر الطُّفَّاح(١٦)
يا من يمدّ الأنبيا والأوليا من سائر المياح والمتاح(١٧)
يا خير خلق الله طرا من له ال جاه العظيم وكعبة المُدّاح
نادك أَلْكَنُ من"كنو"مستعجم وَجِمٌ على أعماله الأقباح(١٨)

يدعى بناصر دينك المومَى له بهواك في نيجريا المِرْبَاح

فالشاعر وصف الرسول صلى عليه بكونه سيد العرب الكرام، فرغم كونه سيد الإنس والجن، آدم فمن دونه تحت لوائه يوم القيامة، إلا أن الشاعر رأى أن يخص بالذكر سيادته صلى الله عليه وسلم للعرب، لما في ذلك من أسباب. فالمقام مقام مدح وإجلال فناسب أن يذكر العرب هنا لمكانتهم وأفضليتهم، فقد روى البيهقي والطبراني وأبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشا واختار من قريش بني هاشم، واختاريني من بني هاشم، فأنا خيار إلى خيار.."[١٩] لقد آثر الشاعر وصف المحبوب بسيد العرب بدلا من سيد الناس، إذ أن في الناس الصفوة والأراذل ومن هم عوان بين ذلك، فاختار أن يصفه بأنه سيد الصفوة الخيار، وهذا أبلغ في المدح. وشيء ثان هو أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي فناسب أن يتغنى الشاعر بسيادته وأفضليته على كافة كرام بني جنسه، بل إنه صلى الله عليه وسلم هو الذهب الخالص من بين خيار العرب الخُلّص، فهو صفوة الصفوة، وبشر لا كالبشر، بل هو في ذلك كالياقوت بين الحجر.

إنه بحر ممتلئ ومرتفع فوق سائر البحار يفيض بالكرم والعطاء والجود والمعارف. وليس مجرد بحر فحسب،بل إن جميع البحار تحته، فهو المحيط الذي تستمدّ سائر البحار مياهها وخيراتها منه، فما من بحر إلا وهو دون هذا البحر العظيم.

فهو الذي يمدّ الأنبياء والأولياء بالعلوم والمعارف الربانية، إذ أنه هو عنصر العلوم الدينية وكنز المعارف الإلهية. فهو الساقي للجميع، سواء منهم الذين

يستسقون من داخل البئر أومن خارجها. فهو الساقي لجميع روّاد الحضرة، صغارهم وكبارهم، بل حتى إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن ساروا على نهجهم من الأولياء والصالحين.

فكلهم من رسول الله ملتمس * غرفا من البحر أو رشفا من الديم

استمر الشاعر في وصف المحبوب بذاك الأسلوب الإنشائي[٢٠] المثير لعواطف عشّاق الحضرة المحمدية، بأنه خير خلق الله قاطبة، وصاحب الجاه العظيم، كما أنه هو كعبة المادحين التي يولّون وجوههم شطرها في أمداحهم حيثما كانوا، كما يتجه المصلى إلى الكعبة للصلاة. فما من مادح إلاّ والرسول صلى الله عليه وسلم متوجَّهه في أمداحه. فالمدح الحقيقي هو ما قيل في ذلك الجناب الموقر.

وأخيرا وقف أمام المحبوب ليبيّن له عجزه عن صوغ مدائح رائعة تليق بمقامه صلى الله عليه وسلم، وأنه لا يصلح بالثناء عليه لأنه أمام:

من لا يفي مدحُ الفصيح بقدره * طول المدى حتى ولو حسّانه

في مقام يستوي باقل فيه بسهبان! إذاً فكيف به وهو أعجمي أَلْكن اللسان، ولا يكاد يبين ولا يقيم العربية من عجمة في لسانه؟ ثمّ إنه لا يستطيع الكلام لما به من الذنوب والأعمال السيئة القبيحة. ومع ذلك بيّن للمحبوب عنوانه وبطاقته الشخصية، فاسمه ناصر الدين – والأرض تُعتبر بأسمائها –[٢١]، وعنوانه الدائم: هو إنه عرف بين الناس بحب المصطفي صلى الله عليه وسلم في بلده نيجيريا ذات الربح العظيم بعشّاق الحضرة المحمدية.إذاً فلكنة اللسان والأعمال القبيحة لا تضر، مادام أن "المرء مع من أحب"[٢٢].

وينعقد التشبيه في وصف الممدوح بأنه إبريز، وبحر خضّم، وكعبة المدّاح. وظاهر أن الشاعر حاول أن يحذف من كل صورة من هذه الصور أداة التشبيه

ووجه الشبه، فلم يبق إلا العنصران. أي أنه أكدّ تشبيهه وأجمله، وهو ما يسمّونه بالتشبيه البليغ. ومثل هذا السياق يوحي بالذوبان والتلاحم بين طرفي التشبيه، وادعاء أن المشبه هو عين المشبه به في جميع أوصافه.

فحذف الأداة مثلا يعني إزالة الحواجز المادية بين الطرفين اللذين يتحولان إلى عنصرين متطابقين لا متشابهين، فلا يكون المشبه عندئذ مثل **المشبه** به، بل يكون هو المشبه به، كأن حذف الأداة يؤدي إلى تضاعف العناصر المشتركة بينها والتي سوّغت بناء التشبيه وإجراءه إلى حد يؤدي بهما إلى التوحّد(٢٣).

وإن حذف الوجه يؤدى إلى إطلاق الصورة، وعدم تحديد معالم الجمال فيها، وإطلاق سراح المتلقي ليشارك المنتج في صياغة النص. وفيه "تقدير لدوره الفاعل خلال التلقّي الذي يغدو معه شريكا للمبدع، إذ يجد نفسه مطالبا بالبحث عن وجه الشبه

الذي من أجله أجرى الشاعر أسلوب التشبيه، وربما اكتسبت الدلالة قدرا من الثراء والسعة والتنوّع بفضل تقدير المتلقّي أكثر من وجه شبه واحد"(٢٤). فحينما وصف الشاعر ممدوحه بأنه هو الإبريز، لم يذكر الوجه، فقد يكون: النفاسة والقدر، أو اللمعان، أو ميل قلوب الناس إليه وتفانيهم في اكتسابه، أو التوسّل والتوصّل به في نيل المآرب والحاجات، ومن يدري لعله مجموع هذه الأشياء، أو شيء آخر غيرها. لقد اتسع أفق الصورة الفنّية حين غاب وجه الشبه، فشمل كل شيء يخطر في بال أديب ومتلقّ. ولاشك أن مثل هذا الحفز للمتلقي في البحث عن أكثر من وجه لاستكمال الصورة يفعّل مشاركته في صياغة النص عن طريق التخييل. كما أن تداعى أوجه شبه كثيرة يسهم في اجتماع عناصر الصورة بتفاصيلها.

ومثل هذا هو ما يستطاع أن يقال في وصف المحبوب بأنه " بحر حضّم " و"كعبة المدّاح "، إذ بوسع المتلقي أن يستحضر أكثر من وجه شبه لكل واحد منها.

وبالعودة إلى البيت الأول:

يا سيّد العرب الكرام ومن هو الـ * إبريز من عرب النقا الأقحاح

يُدرك أن مما زاد هذا التشبيه جمالا تعريف كلمة "إبريز" الذي ينبئ بأن الممدوح هو وحده عين الذهب الخالص ولا يشاركه غيره في ذلك.

وتشبيه المحبوب بالبحر من المعاني العامة التي يشترك فيها الأدباء ويدركها العقل بمنتهى البداهة، إلاّ أن وصف هذا البحر بأنه"طافح الأمواج فوق الأبحر الطفّاح "أخرجه من دائرة الابتذال. حيث إن الشاعر جعل القارئ يتخيل بحرا عظيما متموجا يفيض بخيراته من كثرة امتلائه، وتحته بحار أخرى ممتلئة ومتموّجة. بحار متراكمة بعضها فوق بعض وكلها ملآنة وفيّاضة بالخيرات، إلا أن هناك بحرا عظيما فوق هذه البحار، الذي منه تستمد مياهها وخيراتها التي تزخر بها. إنها صورة فنية رائعة التي لم يكد القارئ يراها في أرض الواقع؛ إلا أن الشاعر أبرزها إلى المتلقي بخياله الثاقب.

هذا كله بجانب ما انطوت عليه هذه الأبيات خصوصا، والقصيدة عموما؛ من الألفاظ الجزلة في إيقاع مليئ بالانفعال. وقد حرص الشاعر في بناء بعضها على صيغة المبالغة، مثل قوله "الطفّاح،المتّاح، المدّاح..."الخ. فلا عجب في أن نجد أستاذنا إبراهيم عمر كَبُو[٢٥] يقول بعد إيراد هذه الأبيات في إحدى مقالته – في أسلوب استفهامي مليء بالتعجب–: ".. ألا ترون ملامح القرون الذهبية في هذه الأبيات من الألفاظ الجزلة الفخمة اللائمة بشخصية الممدوح عليه

الصلاة والسلام ؟... وألا ترون أيضا حسن السبك والصياغة مع براعة النظم واستقامة الوزن مما يشهد للناظم الكريم بمعرفة تامة بعلم العروض والقوافي ؟"[٢٦].

ومثل هذا قول الشاعر في قصيدة أخرى[٢٧]:

أنت السَّمَيْذَع[٢٨] والأملاك رمّتها في كفّكم تنتهي بكم وتأتمر

.....

.....

جُزْتَ الكِيَال جزافا لست متزنا بل شعرة منكم طالت أُولى ذكروا

.....

.....

اختارك الله للعليا وغيركم ذرّات جوهرة من ظهرك انحدروا

شبّه الممدوح بالأسد، لما يمثّله سيّد الغابة ويرمز إليه من القوة، والشجاعة، والغلبة، والسيطرة التامة على غيره. فكما أن الأسد يسيطر على جميع الحيوانات ويسودهم، فكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم يسيطر على جميع الناس، بل إن سيطرته جاوزت الإنس فشملت الملائكة، حيث إنها تنتهي بنهيه وتأتمر بأمره، وانظر إلى استعماله كلمة " في كفّكم " ليؤكد مدى ما للرسول صلى الله عليه وسلم من الرفعة والسيطرة على الأملاك، فهي تحت طواعية يده كأنه يقلّبها ويحرّكها كما شاء في منتهى السهولة والبساطة، إذ لا شيء أسهل للإنسان من تحريك يده. ولما كانت الصفة قوية في المشبه، حذف الآداة والصفة المشتركة بين الركنين. فلم يقل أنت كالسميذع في الشجاعة والسلطة أو السيطرة، بل قال: أنت السميذع، مدعيا أن المشبه هو عين المشبه به.

والتشبيه بالسميذع من المعاني المبتذلة التي شاعت بين الأدباء، ويصل إليها عقل المتلقي في منتهى البداهة، إلا أن تعريف "السميذع " يشير إلى أن الشجاعة الكبرى لم تنته إلا إلى الممدوح. وزاد من قيمة هذا التشبيه أن الشاعر أضاف إلى هذا المعنى معنى آخر، هو أن عظمة الممدوح ورهبته قد فاقت وجاوزت قدرة الأسد وقوته. فملك الغابة يُرى أن ليس في الأرض قوة تعدل قوته أو تقترب منها، فسلطانه إذاً مقيّد بالعالم السُّفليّ. أما سلطان الممدوح فقد شمل العالم السفليّ والعُلويّ، فهو (مطاع ثَمّ أمين). فالأملاك تأتمر بأمره وتنزجر بنهيه، فأين ملك الغابة من هذه القوّة والهيمنة؟

لقد "عني البلاغيون بتحديد التشبيهات التي ذهب الإلف بروائها وإشعاعاتها البلاغية، وذكروا أن الشاعر قد يضفي عليها من روحه وخياله ما ينفض عنها رتابة الإلف، ويبعثها جديدة حيّة، وذلك باب من أبواب الإبداع الذي تُذكر به الموهبة ويُحسب لها"[٢٩]. وهذا ما يوجد في هذا التشبيه، حيث إن الشاعر سار على درب القدامى من تشبيه القويّ الشجاع بالأسد، ثم أضاف إلى الصورة معنى آخر وهو تصرف الممدوح في العالم العلوي تصرفا يشبه تصرف الإنسان بأصابع يديه، الأمر الذي تقصر عنه قوة الأسد وتكلّ دون الوصول إلى أدنى درجاته. بل إن تصوّر سيطرة الأسد في العالم العلويّ من عداد المستحيل. فالشاعر إذاً أضاف إلى الصورة القديمة المألوفة صورة أخرى زادت من قيمة التشبيه، وأبعدته من التداول والابتذال. وهو بهذا الضرب من التجديد قد أبدى شيئا من مقدرته البيانية، "لأن مظهر المقدرة البيانية ليس فقط في تشكيل صور وتشبيهات، وكشف علاقات جديدة، وإنما يكون أيضا في تجديد الصورة الأليفة الرتيبة. وربما كانت في هذا النوع الثاني أكثر براعة واقتدارا، لأن المقدرة التي

تتناول الأشياء المبتذلة الناضبة وتفرغ عليها ما يعيدها بديعة رقراقة مقدرة ربما كانت أمكن من هذه التي تجوس خلال المجهول لتكشف فيه حجبا وتبرز فيه أنماطا من العلاقة المبدعة الخلوب"[٣٠].

استمر الشاعر في البيت الثاني في وصف درجة الممدوح ومنزلته بأنها لا يمكن أن تقاس بكيل ولا ميزان، فهي كالشيء الجزاف الذي لا يعرف عدده ولا مقداره، بل إن أدنى ما يمكن أن يقاس به منزلته صلى الله عليه وسلم، هو أن شعرة واحدة منه تفوق جميع أهل الفضائل والعُلا. فعدل الشاعر هنا أيضا عن القول بأن الممدوح كالشيء الجزاف في عدم معرفة حقيقة مقداره، وادعى أنه هو الجزاف بعينه عل سبيل التشبيه البليغ.

ويوجد هذا النوع نفسه في البيت الآخر، حيث شبه سائر الخلق بالذرات بالنسبة لمقامه صلى الله عليه وسلم، أي تلك الجواهر التي لا تقبل الانقسام لصغرها، بحيث إذا أردت تقسيمها تعود إلى العدم. فكل الخلائق ما هي إلا هذه الذرات التي لا يمكن للعين العادية رؤيتها إلا تحت المجهر لفرط صغرها واضمحلال شأنها إذا قيست بمقام المحبوب ومنزلته صلى الله عليه وسلم. فهو الوحيد في الساحة، بحيث إذا ظهر فلا يمكن رؤية غيره!

ثم زاد الشاعر في ذكر رفعة قدر الممدوح وألمح إلى قصة " عالم الذر"[٣١]، حيث انحدر جميع البشر من ظهر سيدنا آدم عند أخذ الميثاق في ذلك العالم. فكما أن آدم عليه السلام هو أبو البشر، فكذلك كان الحبيب المصطفي صلى الله عليه وسلم هو أبو المكارم والعلى وجميعها منحدرة منه. فما من فاضل إلا وفضله مستمد من فضله صلى الله عليه وسلم. لذلك قال الشاعر:

اختارك الله للعليا وغيركم ذرّات جوهرة من ظهرك انحدروا

٢/ تصوير حالة الذاكرين وما يعتريهم من الحركات والمواجيد أثناء الذكر:

قال الشاعر في قصيدة يصف فيها سكره وهيامه في حلقة الذكر في بلدة طَمْبَتَّ (Dambatta)[٣٢]:

فلو ذاق طعم السُّكر يوما وشاتنا لطاروا به رقصا وخافوا التشدُّقا[٣٣]
نعم ترقص الأعضاء في الذكر دائما إذا ذكرت عهد الحبيب تشوُّقا
فلا تنكروا رقصي إذا ما ذكرته وهل ترقص الأعضاء إلاّ تعشُّقا
إذا ذُكر الأحباب طارت قلوبُنا إلى رؤية المحبوب تشدو تحرُّقا
عكفنا على أمداحه نستطيبها ونهتزّ كالأغصان في ذكر من سقا

يريد الشاعر أن يحمل إلى المتلقي صورة جلية لحالته مع إخوانه الذاكرين من التمايل والحركات والاهتزاز الشديد شوقا وفرحا وبهجة لقيامهم أمام حضرة المحبوب بصورة مماثلة لتلك الصورة التي أظهر بها سيدنا جعفر ابن أبي طالب فرحه حين حجل أمام المصطفي صلى الله عليه وسلم وهو يستمع إلى قوله: "أشبهت خَلقي وخُلقي"[٣٤]، فاهتزّ طربا وتمايل شوقا وشغفا إلى هذه البشرى من البشير صلى الله عليه وسلم.

بدأ الشاعر حديثه بالالتفات إلى الوشاة، ملتمسا لهم العذر فيما يقومون به من الطعن والهجوم والإنكار بأن الذي جرّهم إلى ذلك هو عدم ذوقهم من خمر المحبة، إذ لو ذاقوا طعمها يوما لطاروا رقصا وخافوا من التوسع في الكلام من غير احتياط واحتراز. ثم أكّد لهم بأن الأعضاء ترقص شوقا عند ذكر المحبوب (الله)، وما دام الأمر كذلك فلا سبيل إلى الإنكار له في ذلك. إذ إن نار الغرام التي تضطرم في قلبه هي التي تحرك أعضاءه حتى ولو بدون شعور منه. وفي هذا المعنى يقول الشيخ أبو مدين الغوث[٣٥] في بعض قصائده[٣٦]:

إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا نعم ترقص الأشباح يا جاهل المعنى

وأخيرا وقف الشاعر ليصوّر كيفية هذا التمايل والرقص، الذي ينتابهم في حالة الذكر، فبيّن أنهم عكفوا على تلك الأمداح يستَحْلونها فتتمايل أجسامهم وتتحرك يمينا وشمالا عند إنشادها وسماعها. وأن حالتهم في ذلك تضاهي حالة أغصان الأشجار وأفنانها في يوم عاصف، كل ذلك طربا في ذكر ساقي كأس المحبة، إذ أن الأرواح تشتاق وترتاح إلى القرب من حضرة الممدوح.

وينعقد التشبيه في البيت الأخير، حيث شبه الشاعر اهتزازهم وتمايلهم في الذكر ومدح المصطفي صلى الله عليه وسلم باهتزاز وتمايل الأغصان عندما تهبّ الرياح.

لقد أراد الشيخ أن يصور كيفية وقوفهم في حلقة الذكر في صفوف وهم قيام وجسم كل واحد ملتصق مع جسم صاحبه، يتمايلون من الغرام ثمالي. فدعاه فنّه إلى عقد المشابهة والمماثلة بين هذه الحالة وحالة القضبان في مواجهة هبوب الرياح.

ويمكن الوقوف على جودة هذا التشبيه عند تخيّل حركة هذه الأغصان حينما تهب الرياح، وبالأحرى إذا كانت طويلة ورقيقة، فلا بد أن تكون حركاتها عجيبة، ثمّ إنه لابد أن يكون هناك تلامس بين هذه الأغصان لكثرتها وتقارب بعضها ببعض. فقد أراد الشيخ أن يجذب انتباه المتلقّي ويضع يديه على مدى الحركة التي يصاب بها السكران في ذكر الله ومدحه لمحبوبه صلى الله عليه وسلم، فرأى أن ذلك يكون سهلا حينما يلوذ وراء هذه الصورة.

كما أن هذه الصورة تزداد وضوحا حينما يشهد الإنسان إحدى حلقات الذكر التي يعقدها الشيخ وأتباعه المعروفة عندهم بـ(ذكر الأنفاس)[٣٧]. فإن

الحركات فيها لا تكون على حالة واحدة. بل تراها تارة تمايلا يمينا وشمالا، وتارة انخفاضا وارتفاعا، وأخرى وثبة ونهوضا. حقا إن هذه الحالة تضاهي حالة الأغصان في وسط تموّج الرياح بحيث لا تستقرّ على حالة واحدة.

وهذا التشبيه فيه نوع من الطرافة وعدم الابتذال، لما يحمله من الخيال، ولما أحسن الشاعر في اختيار كلمة " اهتز "، بدلا من كلمة: "حرك"، لما في الأولى من القوة، وعدم ذلك في الثانية. لأن الأولى ولو جرّدت من الزيادة وصارت " هزّ " فإنها تدل على الحركة مع القوة(٣٨). في حين أن المادة الثانية لا تدل على هذا المعنى إلاّ إذا زيد فيها وصارت: "تحرك"(٣٩).

ثم إن تشديد الشاعر للحروف التي قبل الرويّ، يوحي إلى هذا الاهتزاز، فكأن الشاعر يريد من المتلقي أن يشاركه في حركاته واهتزازه، بحيث يتحرك رأسه عند انتهاء كل بيت بدون شعور منه.

أما نوعية هذا التشبيه فإنه تشبيه مرسل مجمل لذكر الأداة وحذف وجه الشبه فيه.

ولعل الشاعر تأثر في تصويره حركة الذاكرين واهتزازهم بحركة الأغصان واهتزازها بما روي عن الإمام علي كرم الله وجهه في وصفه حالة الصحابة رضوان الله عليهم؛ حيث يقول: "..إذ أصبحوا فذكروا الله مادوا(٤٠) كما يميد الشجر في يوم تهب فيه الريح، وهملت(٤١) أعينهم حتى تبتلّ ثيابهم.."(٤٢). وهذه الظاهرة تعرف في الدراسة النقدية الحديثة بظاهرة " التناص"(٤٣).

الخاتمة

خلال هذه الجولة القصيرة في هذه المقالة المتواضعة، حاول الباحث أن يمرّ مرا سريعا بحياة الشاعر، ثم تدرّج إلى التعريف بالتشبيه المفرد، حيث تناول معنى كلمة "المفرد" عند اللغويين والبلاغيين، وذلك كتوطئة للوصول إلى لبّ المقال وجوهره، وهو الحديث عن بعض صور التشبيه المفرد في شعر الشاعر، حيث تناول الباحث نماذج من أبيات الشاعر في وصف شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك من قصيدتي الشاعر "رحيق الحضرتين ونشيق الحرمين" و"الماء المسكوب من سحاب المحبوب على ساحة القلوب". وأما النموذج الثاني؛ فهو عبارة عن وصف حالة الذاكرين وما يعتريهم من الحركات والمواجيد أثناء الذكر.

وقد حاول الباحث – قدر الطاقة – تحليل الأبيات تحليلا بلاغيا، ثم استخراج ظاهرة التشبيه المفرد منها، جريا وراء المنهج التحليلي التطبيقي.

وقد توصل الباحث خلال هذا العرض الوجيز إلى النتائج التالية:

(١) علوّ كعب الشيخ المرحوم في ميدان القريض.

(٢) كثافة التشبيه المفرد في شعره، وبالأخص التشبيه البليغ، بحيث يأخذ نصيب الأسد من شعر الشيخ، من بين سائر الفنون البيانية.

(٣) جاءت تشبيهاته في معظمها، وهي تصور عصره ومجتمعه، كالتشبيه بالطائرة والسيارة إلخ.

(٤) محاولة الشاعر في تفعيل مشاركة المتلقي في صياغة النص وذلك عن طريق حذف وجه الشبه، ليكون للمتلقي دور يقوم به في تخيل ذاك الوجه بنفسه.

(٥) محاولة الشاعر في تحديد بعض صوره التشبيهية، لإخراجها من دائرة التداول والابتذال.

والله من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الهوامش والمراجع

(١) محمد الناصر الكبري **(**الشيخ**)**، **نسب الإمام السنكوري الأنور**، مخطوط، ص**4-5**

(٢) من ضواحي مدينة كنو، وتبعد عنها بخمسة أميال تقريبا.

(٣) أسس هذا المعهد الشيخ مالم كبر، في حوالي سنة **(1787**م**)**، انظر: الثقافة العربية في نيجيريا، للدكتور علي أبي بكر، ص**169**

(٤) المتبولي شيخ كبر، المدائح النبوية في شعر الشيخ محمد الناصر كبر، **(**رسالة ماجستير، غير منشورة، قسم اللغة العربية، جامعة بايرو بكنو، **2002**م**)**، ص**15**

(٥) الشيخ محمد الناصر كبر، **إحسان المنان في إبراز خبايا القرآن، نيجيريا: المكتبة القادرية، د. ت، ج1**، ص**5-12.**

(٦) عبد العزيز عتيق **(**الدكتور**): علم البيان، (**ط**1**؛ القاهرة: دار الآفاق العربية، **1427**هـ **- 2006**م**)**، ص**41-42.**

(٧) انظر: ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، مادة "فرد"، **(**ط**1**؛ بيروت: دار صادر، د.ت**)**، ج**3**، ص**331.**

(٨) بكري شيخ أمين، **البلاغة العربية في ثوبها الجديد، (ط7**؛ بيروت: دار العلم للملايين، **2001م)**، ص**32.**

(٩) نفس المرجع والصفحة.

(١٠) وقد درجت كتب البلاغة على تفصيل الحديث عن وجه الشبه تفصيلا دقيقا، يكاد قارئه من كثرة أجزائه وأقسامه يضل ويضيع. فهو بمثابة مهامه فيح تحار فيها القَطا وتقصر بها الخُطا. ويمكن الرجوع إلى "البلاغة فنونها و أفنانها " للأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، ج**2**، ص**67** . **79.** و "علم البيان" للدكتور/ بسيوني عبد الفتاح فيود، ص**46** . **70.** فقد تحدث كل واحد منهما بما لا مزيد عليه، بالنسبة لأحوال وجه الشبه التي تعرض له، أو صفاته التي يتصف بها، والتي هى محط أنظار البلاغيين.

(١١) عمرو . هنا . هو عبّاس بن مرة التغلبي، يقال: إنه لما رُمي كليب بن مرة التغلبي وقف على رأسه فقال: يا عمرو أغثنى بشربة ماء، فأتمّ قتله. والرمضاء: الأرض التي أسخنتها الشمس الشديدة. "مجمع الأمثال" لأبي الفضل النيسابوري، (المكتبة الشاملة، القسم: الأدب و دواوين الشعر) **374/1.**

(١٢) إبراهيم أحمد مقري **التشبيه وتشكيل الصورة الشعرية عند الشيخ إبراهيم انياس الكولخي**، ندوة تكميلية لمتطلبات الحصول على الدكتوراه في اللغة العربية، قسم اللغة العربية - جامعة بايرو، كنو، ص **2**، نقلا عن: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، للدكتور جابر عصفور، ص **204.**

(١٣) د. محمد عبد المنعم خفاجى،**الأدب في التراث الصوفي**،(الطبعة الثالثة؛ القاهرة: مكتبة غريب)،ص**243.**

(١٤) المتبولي شيخ كبر، **شعر الشيخ محمد الناصركبر..**، جمعه وترتيبه حسب موضوعه الشعري (بحث مقدم إلى قسم الغة العربية جامعة بايرو، كنو، للحصول على شهادة الليسانس، **1994**م)، ص**165.**

(١٥) **الإبريز:** الذهب الخالص.**النقا:** الخيار. **الأقحاح:** جمع قحّ أي المحض الخالص

(١٦) **الخِضمّ:** الحمول الجوادالمعطاء الكثيرالمعروف والعطية، والخضم: البحرلكثرة مائه وخيره (لسان العرب، مادة: خضم).**الطافح:** الممتلئ الفياض.

(١٧) **الميّاح:** ماحه مَيْحا: أعطاه، والميح يجري مجرى المنفعة، وكل من أَعطى معروفا فقد ماح، ومِحتُ الرجل أعطيته، (لسان العرب، مادة ميح). **المتّاح: قيل الماتح:**المستقى، والمائح: الذى يملأ الدلو من أسفل البئر،ومتح الدلو يمتحها متحا إذا جذبها مستقيابها،وماحها يَميحها إذا ملأها.

(١٨) **أَلْكَن:** من اللكنة وهى عجمة في اللسان،يقال رجل ألكن: الذى لايجيد العربية من عجمة في لسانه. **وجم:** سكت وعجز عن الكلام من شدة الغيظ أو الحزن أو الخوف.

(١٩) أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، **الخصائص الكبرى**، (د.ط؛ بيروت: دار الكتب العلمية، **1405**هـ . **1985**م)، ج **1**،ص

66. قال البيهقي بعد أن ساق الحديث بمختلف رواياته: "وهذه الأحاديث وإن كان في رواتها من لا يحتج به فبعضها يؤكد بعضا، ومعنى جميعها يرجع إلى حديث واثلة بن الأسقع " وهو حديث أخرجه الإمام مسلم في الصحيح بلفظ: " إن الله اصطفي من ولد إبراهيم إسماعيل..." أنظر: **السيرة النبوية** لابن كثير، ج**1**، ص**194.**

(٢٠) الإنشاء: ما لا يتصف بالصدق أو الكذب من الكلام، والمقصود هنا أسلوب النداء الذي استعمله الشاعر.

(٢١) أثر عن عبد الله بن مسعود أنه قال:"اعتبروا الأرض بأسمائها،واعتبروا الصاحب بالصاحب "البيهقي، **شعب الإيمان،**[ط**1**؛ بيروت: دار الكتب العلمية،**1410**هـ]، ج**8**، ص **55.**

(٢٢) حديث رواه الإمام البخاري في صحيحه،ج**5**، ص **2283**، [ط**3**؛ بيروت: دار ابن كثير، **1408**هـ - **1987**م].

(٢٣) إبراهيم أحمد مقري،**التشبيه وتشكيل الصورة الشعرية عند الشيخ إبراهيم إنياس الكولخي**، ندوة تكميلية لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية، ص**8**، نقلا عن:**الصوت والصورة في الشعر الجاهلي**، للدكتور طارق سعد شلبي، ص**192.**

(٢٤) المرجع السابق، ص**10.**

(٢٥) من كبار أساتذة قسم اللغة العربية بجامعة بايرو منذ السبعينيات. وهو الآن رئيس مجلس العلماء النيجيري.

(٢٦) إبراهيم عمر، **دور اللغة العربية في المناقشات الدينية عند علماء كنو، (**مجلة دراسات عربية،قسم اللغة العربية،كلية بايرو الجامعية – كانو العدد **3، 1977**م**)**، ص**:122.**

(٢٧) المتبولي شيخ كبر،**شعر الشيخ محمد الناصر كبر..**،المصدر السابق،ص **76-77.**

(٢٨) السميذع: بالذال والدال، وصرّح بعضهم بأن إعجام ذاله خطأ: الكريم الشريف السخيّ الموطأ الأكناف، والسميدع أيضا: السيف، ويقال للذئب أيضا سميذع. وكذلك الجميل الجسيم. والسميذع أيضا: الأسد، وهو مراد الشاعر هنا فيما يبدو. انظر: "تاج العروس من جواهر القاموس"، للسيد مرتضى الزبيدي، مادة **(**سمذع **).**

(٢٩) محمد محمد أبو موسى، **التصوير البيانى: دراسة تحليلية لمسائل البيان، (**ط**6**؛ القاهرة: مكتبة وهبة، **2006**م**)**، ص**174.**

(٣٠) المرجع السابق والصفحة.

(٣١) لمزيد من البيان حول هذا العالم وما جرى فيه، انظر حاشية الإمام الصاوي على تفسير الجلالين عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ **[**سورة الأعراف: **172]**، ج**2**، ص**106** . **107. (**دار الفكر- بيروت **1977).**

(٣٢) الشيخ محمد الناصر كبر، **ديوان سبحات الأنوار، (**طبعة الماهر شريف بلا، د.ت**)**، ص**8.**

(٣٣) وطمبت: بلدة شماليّ مدينة كنو، وتبتعد عنها بحوالي أربعين كيلومتر.

(٣٤) **تشدّق:** استهزأ بالناس، وتشدق بالكلام وفيه: توسّع في الكلام من غير احتياط واحتراز. المنجد، مادة **[**شدق**]** مرجع سابق، ص**379.**

(٣٥) البيهقي، **شعب الإيمان،** تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، **[** الطبعة الأولى؛ بيروت: دار الكتب العلمية، **1410**هـ **]**، ج **4**، ص**283.**

(٣٦) هو شعيب بن الحسن الأنصاري الأندلسي **[**ت **594**هـ **/1197**م**]**،صوفي شهير، و من أكبر من أخذوا عن الشيخ عبد القادر الجيلاني.التقى معه في الحج فأخذ عنه مباشرة. هاجر إلى فاس و كثر أتباعه، حتى خافه السلطان الموحّدي أبو يوسف يعقوب المنصور. نعته الشيخ محي الدين بن العربي ب" شيخ الشيوخ ".انظر: **أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته،** لعبد الباقي مفتاح، ص**274.**

(٣٧) أ.د / الشيخ حسن الفاتح قريب الله، **يستنبئونك،** بدون معلومات النشر، ص **56.**

(٣٨) وهو عبارة عن ترديد اسم الجلالة (الله)، أو الهيللة (لاإله إلا الله)، عن طريق النفَس والصدر معا.

(٣٩) انظر مادة " هزّ " في المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفي وغيره، تحقيق: مجمع اللغة العربية جمهورية مصر العربية، دار الدعوة، ج**2**، ص**984.**

(٤٠) انظر مادة " حرك " في المرجع السابق، ج**1**،ص**168.**

(٤١) ماد الشيء ميدا وميدانا: تحرك واضطرب، والغصن، تمايل. (المعجم الوسيط، مادة "ماد"، 893/2).

(٤٢) هملت العين: فاضت وسالت.

(٤٣) ابن كثير، **البداية والنهاية** (المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث، القسم: كتب التاريخ)، ج8، ص6.

(٤٤) انظر: **التناص في شعر الرّوّاد**، للدكتور أحمد ناهم، (ط1؛ القاهرة: دار الآفاق العربية، 2007م)، ص50 . 61.